أهل العلم والحكم

في ريف فلسطين

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

(تتمة)

وقد بنى على هذا الدير الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي قلعة حصينة وأنفق عليها الأموال الجمة وأحكمها غاية الأحكام . فلما كان في سنة ٦١٥ هـ وخرج الإفرنج من وراء البحر طالبين بالبيت المقدس أمر بخرابها حتى تركها كأمس الدابر والتحق (سور) البيت المقدس بها في الخراب فهما إلى هذه الغاية خراب (القرن السابع) . معجم البلدان (ج ٦ — ٦٧)

وهناك طوران آخران أولهما الجبل المشرف على نابلس ولهذا يحجه السامرة . والثاني طور زيتا أو « جبل الزيتون » وهو مشرف على المسجد الأقصى ، وبينهما وادي جهنم ، وفيه صلى عمر بن الخطاب . وفي الأنس الجليل ج ١ — ٢٥٨ أن أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية[1] الصالحة المشهورة (من أعيان مصرها في القرن الثاني) وقبرها على رأس جبل طور زيتا شرقي البيت المقدس ، بجوار مسجد موسى عليه السلام ، وهو في زاوية ينزل إليها من درج .

ويقول في ج ٢ — ٤١٠ عن أبي هريرة : أقسم ربنا بالتين والزيتون ، والزيتون طور زيتا . والتين مسجد دمشق . وعن صفية زوج الرسول أنها قدمت القدس فصلت به ، وصعدت إلى طور زيتا وصلت وقامت على طرف الجبل وقالت « من ها هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار » ومن هذا الجبل صعد عيسى عليه السلام ، وعلى رأسه كنيسة من بناء هيلانة في وسطها قبة . ولما فتح صلاح الدين القدس سنة (٥٨٣ هـ) وقف أرض طور زيتا على الوالي الصالح ولي الدين أبي العباس أحمد المكاري ، وعلى الإمام الزاهد أبي الحسن المكاري ، سوية بينهما وعلى ذريتهما ، وقبر مريم عليها السلام في كنيسة في داخل جبل الطور تسمى الجيسمانية وهو مكان مشهور مقصود للزيارة من المسلمين والنصارى والكنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين .

أما الوديان والعيون فيذكر منها وادي النمل بين بيت جبرين وعسقلان ، ولا يذكر وادي النصور وهو بظاهر القدس من جهة الغرب يسير فيه الآن القطار الصاعد من الرملة إلى القدس وقد دفن فيه القطب الكبير بدر الدين ابن محمد من أولاد سيدنا علي ابن أبي طالب توفي (٦٠٥ هـ) وأولاده (بشرفات) وكانت تعرف « بشفرات » فلما انتقل إليها الأشراف أولاد أبي الوفا غيروا اسمها .

وقد ذكر من العيون ، عين البقر وهي قرب عكا ، يزورها المسلمون والنصارى واليهود ، وعليها مشهد ينسب إلى علي ابن أبي طالب (معجم البلدان ٦ — ٢٥٣) .

وعين الجالوت ، وهي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس استولى عليها الصليبيون ، واستنقذها منهم صلاح الدين سنة (٥٧٩ هـ) معجم ٦ — ٢٥٤ . ولم يذكر ياقوت أن التتار هزموا بها ، لأن الوقعة كانت بعد وفاته . أما عين سلوان فهي في ربض بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جناناً عظيمة وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد (المجذومين) .

(ولا يزال منهم نفر بها) .

أما الحصون والقلاع فيذكر منها « الجيب » ويقول هي حصنان يقال لها الجيب الفوقاني والجيب التحتاني بين بيت المقدس ونابلس وهما متقاربان (معجم البلدان ٣ — ١٨٦) وتقع الجيب إلى يمين السالك من رام الله إلى القدس .

ومنها حصن العنب ، وهو من أرض بيت المقدس واسمه الآن قرية « العنب » أو « أبو غوش » وأبو غوش هي عائلة إقطاعية تسكن هذه القرية ، وكانت في العهد العثماني تجبي من زوار بيت المقدس جعلا مقابل خفر الطريق ، وفيها عين ماء ذكرها الرحالة ناصر خسروي الذي زار بيت المقدس في سنة (٤٣٨ هـ) وفيها أكثر من دير .

ويذكر حيفا فيقول إنها حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ، لم يزل بأيدي المسلمين إلى أن تغلب عليه كندفري الذي ملك بيت المقدس سنة (٤٩٤ هـ) وبقي في أيديهم إلى أن فتحه

(١) وفي قول أنها دفنت بالبصرة

صلاح الدين سنة (٥٧٣ هـ) وخربه .

وفي تاريخ دمشق ذكر لإبرهيم بن محمد بن عبد الرازق أبو طاهر الحافظ الحيق من أهل قصر (حيفة) سمع بأطرابلس (طرابلس) وحدث بصور سنة (٤٨٦ هـ) . (معجم البلدان ج ٣ — ص ٣٨٢) . ثم يقول تحت اسم « قصر حيفا » موضع بين حيفا وقيسارية ينسب إليه أبو محمد عبد الله القيسراني القصري سكن حلب وكان مقتها . تفقه بالعراق بالمدرسة النظامية (أسسها نظام الملك سنة ٥٩ . هـ) على أبي الحسن الحراس ، وأبي بكر الشاشي الخ وارتحل إلى دمشق وعمل بها حلقة المناظرة وانتقل إلى حلب فبنى له ابن العجمي بها مدرسة درس بها إلى أن مات سنة (٥٤٤ هـ ؟) . (معجم البلدان ٧ — ١٠٠) .

ويعلق ياقوت على « قصر حيفه » بالهاء ، وأنا أحسبه المذكور قبله أي حيفا فيعتبرهما مكاناً واحداً .

ومن الحصون الأخرى الدروبة وهو بسواحل بحر الشام مشرف على عكا ، وقد جاء ذكره أكثر من مرة في حروب صلاح الدين الصليبيين حول عكا . ومنها الداروم ، قال ابن الكلبي قال الشرقي نزل بنو حام بحري الجنوب والدبور ويقال لتلك الناحية الداروم ، فجعل الله فيهم السواد والأدمة ، وأحمر بلادهم وسماءهم وجرت الشمس والنجوم من فوقهم ورفع عنهم الطاعون ، والداروم قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر والواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ وقد خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤ هـ وينسب إليها الخمر . قال اسماعيل بن يسار :

يا ربع رامة بالطيباء من ريم ... هل ترجعن إذا حييت تسليمي
ماباك حي عفت يزل الحيا بهم ... تحدى لفرقتهم سيراً بتعجيم
كأني يوم ساروا شارب ثملت ... فؤاده قهوة من خمر داروم
إني وجدك ما عودي بذي خور ... عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم

وغزاها المسلمون في سنة ثلاث عشرة وملكوها فقال زياد بن حنظلة .

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... شد الخيول على جموع الروم
يضربن سيدهم ولم يمهلهم ... وقتلن قلبهم إلى داروم

ويقال لها الدارون أيضاً ، وينسب إليها على هذا اللفظ ابو بكر الدارومي روى عن عبد العزيز العطار عن شقيق البلخي روى عنه أبو بكر الدينوري بالبيت المقدس سنة (٣٠٨ هـ) . (معجم البلدان ٤ — ١٣) .

ومن الحصون السحيلة وهو اسم قلعة حصينة قبلي بيت المقدس والطرون (اللطرون) وهو حصن بين بيت المقدس والرملة ، فتحه صلاح الدين سنة (٥٨٣ هـ) ، وفيه عين ماء ، وهو قرب باب الواد ويعتبر من الحصون المسيطرة على طريق يافا بيت المقدس . ومن الحصون الشهيرة عنليت « عنايت » وهو في سواحل الشام (جنوبي حيفا) ويعرف بالحصن الأحمر ، فتحه صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (معجم البلدان ٦ — ١٢٢) .

ومنها أيضاً عفراء ، وهو حصن قرب بيت المقدس ويعتبر ياقوت « العفولة » بلاده ويقول أنها بفلسطين من نواحي فلسطين (معجم البلدان ٦ — ٤٠٥) أما الأنس الجليل فيقول أنها كانت من أحسن الحصون ، وفيها من العدد والأموال الشيء الكثير ، وأن الأفرنج كانوا يتجمعون بها . وفتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (الأنس الجليل ج ١ — ٢٨٨)

ومن الحصون في الساحل بين حيفا ويافا ، « قاقون » ويقول عنه ياقوت أنه قرب الرملة ، وقيل أنه من عمل قيسارية ، ومنها أبو القاسم القاقوني أمام مسجد الجامع بقيسارية روى عنه سلامة المجدلي ، ومنها شبل أبو القاسم الصوبي القاقوني سمع بدمشق وروى عنه أبو الفتيان الدهشاني . (معجم البلدان ٧ — ٤١٦)

وكانت قاقون على طريق القوافل الواردة من الجنوب مارة بالرملة ، فجلجولية ، فقلنسوة فقاقون ، فاللجون فرج بني عامر فبيسان فنمشق ، أو من اللجون جنوبا . وقد جاء ذكرها في حملة نابليون في أواخر القرن الثامن عشر .

وإلى الجنوب من قاقون (قلنسوة) وقد ذكرها ياقوت وقال عنها أنها حصن قرب الرملة وقد قتل بها عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان ، وعمر بن أبي بكر وعبد الملك وأبان ومسلمة بنو عاصم وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان ويزيد ومروان وأبان وعبد العزيز والأصبغ بنو عمرو بن سهيل بن عبد العزيز ، حملوا من مصر إلى هذا الموضع وقتلوا فيه مع غيرهم من بني أمية

(معجم البلدان ٧ — ١٥٢) .

ومن الحصون ، (كرمل) ، وهو حصن على الجبل المشرف على حيفا ، وكان قديماً فى الإسلام يعرف بمسجد سعد الدولة . وكرمل قرية فى آخر حدود الجليل من ناحية فلسطين (معجم البلدان ج ٧ — ٢٤٤) والكرمل هو اسم الجبل الذى بنى عليه الحصن .

ومن القلاع التى اشتهرت فى الحروب الصليبية قلعة «كوكب» وهى على الجبل المطل على مدينة طبرية . ويقول ياقوت أنها حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت بعد ذلك .

وقد جاء ذكرها فى الأنس الجليل (١ — ٣١٦) وقال إن السلطان صلاح الدين حاصرها سنة ٥٨٤ وقاتل أهلها أشد حصار وهدم غالب بنائها وملكها وعرض القلعة على جماعته فلم يقبلوها فولاها فايتباى النجمى على كره منه .

* * *

أما المواقع فأشهرها أجنادين[1] وحطين ، وقد ذكرهما ياقوت فقال عن الأول (أجنادَين) وقد تكسر الدال وتفتح النون بلفظ الجمع ، وأكثر أصحاب الحديث يقولون أنه بلفظ التثنية ، ومن المحدثين من يقوله بلفظ الجمع ، وهو موضع معروف بالشام من نواحى فلسطين . وفى كتاب أبى حذيفة البدرى أن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين كانت به وقعة بين المسلمين والروم مشهورة — وقال العلماء بأخبار الفتوح شهد يوم أجنادين مائة ألف من الروم سوى هرقل أكثرهم وتجمع الباقى من النواحى وهرقل يومئذ بحمص فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً ثم هزموا وتفرقوا وقتل المسلمين منها خلقاً واستشهد من المسلمين عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وعكرمة ابن أبى جهل والحارث بن هشام[2] . وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاء مشهوراً وانتهى خبر الواقعة إلى هرقل فهرب من حمص إلى إنطاكية وكانت سنة ثلاث عشرة قبل وفاة أبى بكر بنحو شهر فقال زياد بن حنظلة :

ونحن تركنا أرطبون مطرداً ... إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لما تتابعوا ... وقامت عليهم بالمراء نسور
عطفنا له تحت العجاج بطعنة ... لها نشج نائى الشهيق غزير
فلمنا به الروم الربيضة بعده ... عن الشام أدنى ما هناك شطير
فولت جموع الروم تتبع إثره ... تكاد من الذعر الشديد تطير
وفودرصرعى فى المكر كثيرة ... وعاد إليه الفل وهو حسير

وقال كثير بن عبد الرحمن :

إلى خير أحياء البرية كلها ... لذى رُحم أو خلة متأسن
له عهد ود لم يكدر بريبة ... وقول معروف حديث ومزمن
وليس امرؤ من لم ينل ذاك كامرئ ... بدا نصحه فاستوجب الرفد محسن
فإن لم تكن بالشام دارى مقيمة ... فإن بأجنادين كنى ومسكنى
منازل صدق لم تغير رسومها ... وأخرى بحيافا رقيت فوزن

(معجم البلدان ج ١ — ١٢٦) .

وأما «حطين» فكانت فيها الوقعة الفاصلة بين صلاح الدين والأفرنج سنة (٥٨٣ هـ) وهى قرية بين طبرية وعكا ، بالقرب منها قرية يقال خبارة ، وذكر الحافظان أن حطين بين أرسوف وقيسارية ، وهو غير الذى عند طبرية وإلا فهو غلط منهما .

ونسب الحافظان إليها أبا محمد هياج الحطينى الزاهد نزيل مكة سمع من كثيرين منهم أبا أحمد الغيطرافى . وسمع منه جماعة من الحفاظ منهم محمد بن طاهر المقدسى وأبو القاسم هبة الله الشيرازى

(١) فى الآن خربتان بالقرب من الرملة تعرفان بخربة الجنابة الفوقا والتحتا ولعل بقيتها الفلاحون فيقولون «الجنابين» وهما بين زكريا وبيت جبرين .

ومن المواقع العربية الأخرى موقعة (عربة) أوقع بها أبو أمامة الباهلى بالروم وكانت به وقعة للمسلمين مع الروم أول الفتح) :

— قال أبو سفيان الأكلبى

أبونا رسول الله وابن جبلة ... جريء يوانا فنعم المركب
أبونا الذى لم تركب الخيل قبله ... ولم يدر شيخ قبله كيف يركب

وقال أسد بن الجاحل :

وعربة أرض جد فى الدهر أهلها ... كما جد فى شرب النقاخ ظماء

(ياقوت ٦ — ١٢٨) . ووقعة الطواجين بين خارويه بن والمعتضد سنة ٧٢١ هـ . وهى قرب الرملة .

٤٦ ٠ ٣٣

(٢) فى مثير الغرام أن الصحابة الذين استشهدوا بأجنادين منهم ، أبان بن سعيد بن العاص ، والحجاج بن الحارث ، وخالد بن سعيد بن العاص وحصين بن عمر التميمى ، ونعيم بن عبد الله النحام ، وهبار بن سفيان المخزومى ، وسلمة بن هشام المخزومى ، وطليب بن عمير ، وعبد الله بن السلوى ، وعبد الله بن الأقرع ، وعبد الله بن عمرو القرشى ، وفضيد الله ابن سفيان ، وأبو عبيدة بن عمارة المخزومى وهشام بن العاص .

كما نسب إليهما جعفر محمد بن أبي علي الخطيبي وغيرهم وكان زاهداً فقيهاً مدرساً يفطر كل ثلاثة أيام ويعتمر كل يوم ثلاث عُمر ، ويملي على المستفيدين عدة دروس ، ولم يدخر شيئاً . وكان يزور رسول الله كل سنة حافياً ، ويزور ابن عباس بالطائف ، واستشهد في مكة في وقعة وقعت بين أهل السنة والشيعة ، فحمله أميرها محمد بن أبي هاشم فضربه ضرباً شديداً على كبر السن ثم حمل إلى منزله فعاش بعد الضرب أياماً ثم مات سنة (٤٧٢ هـ) (معجم البلدان ٣ — ٢٩٨) . (وشذرات الذهب ٣ -- ٣٤٢)

وقد وصف لنا ياقوت بعض مواقع في فلسطين منها النواقير ، والغور ، والجمارة . أما النواقير وهي معروفة الآن بالناقورة[1] ففرجة في جبل بين عكا وصور على ساحل بحر الشام . قيل إن الإسكندر أراد السير على طريق الساحل إلى مصر ومنها إلى العراق فقيل له إن هذا الجبل يحول بينك وبين الساحل فنقر ذلك الجبل وأصلح الطريق فيه فلذلك سمي بالنواقير . (معجم البلدان ٨ -- ٤٣٠)

وقال عن الغور إنه منخفض من أرض دمشق والبيت المقدس وفيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ومنها مأخذ مياهها . وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية وهو وخيم شديد الحر ، غير طيب الماء ، وأكثر ما يزرع فيه قصب السكر . ومن قراه أريحا ، وفي طرفه الغربي « الجنوبي » البحيرة المنتنة وفي طرفه الشرقي « الشمالي » بحيرة طبرية (معجم البلدان ٦ — ٣١٢) .

ويصف لنا ياقوت الريف الفلسطيني بين رفح وغزة فيقول إن بينهما ثمانية عشر ميلا . وعلى ثلاثة من رفح من جنب غزة شجر جميز مصطف من جانبي الطريق من اليمين والشمال نحو ألف شجرة متصلة أغصان بعضها ببعض مسيرة نحو ميلين ، وهناك منقطع رمل الجفار ويقع المسافرون في الجلد . وما زال المسافر بين غزة وخان يونس يرى أشجار الجميز الباسقة هذه .

أما الجفار وهي ما يعرف بالنجب الآن (أو قضاء بير السبع بالاصطلاح الإداري) فهي بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبي متصلة برمال تيه بني إسرائيل وكلها رمال سائلة بيض في غربيها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفي شرقيها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم (البحر الأحمر) وسميت الجفار الكثرة الجفار بأرضها ولا شرب لسكانها إلا منها رأيتها مراراً . ويزعمون أنها كانت كورة جليلة في أيام الفراعنة إلى المئة الرابعة من الهجرة ، فيها قرى ومزارع ، أما الآن ففيها نخل كثير ورطب طيب جيد وهو ملك لقوم متفرقين في قرى مصر يأتونه في أيام لقاحه فيلقحونه ، وأيام إدراكه فيجتنونه ، وينزلون بينه بأهليهم في بيوت من سعف النخل والحلفاء . وفي الجادة السابلة إلى مصر عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل وهي « رفح والقس والرمثا والعريش والورادة وقطية » في كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين يشترى منها كل ما يحتاج السافر إليه ...

قال أبو الحسن المهلبي في كتابه الذي ألفه للعزيز وكان مولده سنة (٣٨٦ هـ) « وأعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة ، والنخل في جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان ، وأهلها بادية متحضرون وجميعهم في ظواهر مدنهم أجنة وأملاك وأخصاص فيها كثير منهم ، يزرعون في الرمل زرعاً ضعيفاً يؤدون فيه العشر ، وكذلك يؤخذ من ثمارهم .

ويقطع في وقت من السنة إلى بلادهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه السُّرغ «الفر» يصيدون منه ماشاء الله يأكلونه طريا ويقتنونه مملوحا . ويقطع أيضاً إليهم من بلد الروم على البحر في وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق ، وقلما يقدرون على البازي . وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراهة ما لبواشقهم ...

وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم إلى الحراس لأنه لا يقدر أحد منهم أن يعدو على أحد ، لأن الرجل منهم إذا أنكر شيئاً من حال جنانه نظر إلى الوطء في الرمل ، ثم قفا ذلك إلى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقه . وذكر بعضهم أنهم يعرفون أثر وطء الشاب من الشيخ والأبيض من الأسود والمرأة من الرجل والسائق من الراكب ؛ فإن كان هذا حقاً فهو من أعجب العجائب .

(معجم البلدان ٣ — ١١٣) .

أحمد سامح الخالدي

(١) هي جبل رمال طبيعي جيري ، مشرف على البحر ، كانت تجتازه الدواب بكل مشقة ، إلى أن شقت جيوش الحلفاء طريقاً سهلاً فيه في الحرب الأولى . وأصبحت النواقير فيما بعد الحد الفاصل بين لبنان وفلسطين